الدرس (٠٠٢) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فنشرع في قراءة الباب الأول من هذا الكتاب المبارك كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية، وقد بدأه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بآيات من كتاب الله عز وجل.

(قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الحج:٣٧]، وقال تعالى: (﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٢٩].)

ثم أورد رَحِمَهُنَّ ٱللَّهُ ثلاث آيات من القرآن الكريم على الإخلاص وإحضار النية:

الأولى: قول الله سبحانه: (﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥])، وهذه الآية الكريمة من آيات الإخلاص وعظم شأنه، وأن الواجب على العبد أن تكون عبادته كلها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خالصة.

قال: (﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾)، وهذا من أساليب الحصر في لغة العرب، فالعباد لم يؤمروا في عباداتهم وطاعاتهم وقرباتهم إلا بالإخلاص، بأن تكون جميعها خالصةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس لأحدٍ فيها شيئًا، وعرفنا أن الخالص هو الصافي النقي، الذي لم يُرَد به إلا الله جَلَّ وَعَلَا، فهذا الذي أمر به العباد: أن تكون جميع العبادات التي يتقربون بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خالصةً لله.. (﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾)، أي: دينهم خالصٌ وصافٍ ونقي، لم يرد به إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: (﴿حُنَفَآءَ﴾) **الحنيفية**: ملة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، **والحنيف**: هو المائل عن كل باطل وعن كل ضلال، ومن ذلك الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إلى الحق والهدى، وأعظم الحق والهدى التوحيد والإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: (﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾): إشارة إلى ما سبق، وأعظمه إخلاص الدين لله سبحانه فهو دين الله عَزَّوَجَلَّ الذي أمر عباده به.

الدليل الثاني: قول الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج:٣٧])، والضمير في قوله: (﴿لُحُومُهَا﴾) و: (﴿دِمَآؤُهَا﴾) عائدٌ إلى النسك الذي يذبح يوم عيد الأضحى، فيخبر جَلَّوَعَلَا أنه ليس المقصود من ذلك الذبح، ومن ذلك النسك اللحمَ فقط، أو مجرَّدَ الذبح فقط: (﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾)، فالمقصود بذلك تقوى الله، والتقرب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، وطلب رضاه، فليس المقصود منها ذبحها فقط، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يناله من لحومها ولا من دمائها شيءٌ، لكونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الغني الحميد، وإنما يناله جَلَّوَعَلَا الإخلاص فيها لله، والاحتساب في طلب ثوابه ورضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقيام النية الصالحة الخالصة في قلب المتقرِّب بذلك النسك، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾).

فإذن هذه الآية الكريمة المباركة فيها حثٌّ على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصدُ به وجهَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا للفخر، ولا للسمعة، ولا للرياء، ولا لمجرَّد أيضًا العادة، ومحاكاة الآخرين، بل من أجل الله ولله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهكذا الواجب في سائر العبادات: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وإن لم يقترن الإخلاص بالعمل بطل العمل، وكان العمل كالقشر الذي لا لب فيه، وكالجسد الذي لا روح فيه، فالإخلاص هو روح الأعمال وأساسها وأصل قيامها.

الآية الثالثة: قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٢٩]).

في هذه الآية الإخبار بسعة علم الله، وأن علم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وسع كل شيءٍ، وأنه جَلَّوَعَلَا أحاط بكل شيءٍ علمًا، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وممَّا أحاط به علمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما يجول في نفوس العباد، وما يقوم في قلوبهم، والقلوب متفاوتة في نياتها وإراداتها ومقاصدها وأفكارها وتصوراتها إلى غير ذلك، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أحاط علمه بذلك كله.

وقد يقوم رجلان أو أكثر في صفٍّ واحد.. في ركوعٍ واحدٍ وسجودٍ واحد وقيامٍ واحد وصلاةٍ واحدة، وأحدهما عمله كله خالص لله، والآخر الذي هو إلى جنبه عمله كله رياء، لم يرد به الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا لا يعلم به من هو إلى جنبه.. لا يعلم عن إخلاصه، والآخر أيضًا المخلص لا يعلم عن رياء من هو إلى جنبه، وهو إلى جواره في الصلاة، ورب العالمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أحاط علما بنفوس الجميع، وبقلوب العالمين، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: (﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾)، سواءً أبديتم ما في صدوركم من نوايا أو إرادات أو مقاصد أو غير ذلك، أو أخفيتموها وأبقيتموها في صدوركم.. لم تطلعوا أحدًا عليها، ولم تخبروا أحدًا بها، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مطلع على ذلك.

فالآية من أعظم ما يكون دلالةً على أهمية الإخلاص ووجوبه، وأن الواجب على العبد أن يراقب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأن أي حركة في الضمير، وإن لم يعلم بها أحد من الخلق، فرب العالمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعلم بها، ولا تخفى عليه جَلَّوَعَلَا، لأن علمه وسع كل شيءٍ.. وسع ما في النفوس (﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾)، أي: وعلمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ محيطٌ لِمَا في السماء، وما في الأرض.

ففي الآية إرشادٌ عظيم إلى تطهير القلوب، وإصلاح النيات، واستحضار علم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كل وقت، وأن يقوم في قلب العبد الحياء من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أن يرى قلبه محلًا لفكرٍ رديء، أو أمرٍ سيئ، وأن لا يكون فيه إخلاصٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فاستذكار هذه الآية واستحضارها من أعظم العون على تحقيق الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأيضًا في ضمن ذكر العلم في هذا المقام تنبيهٌ على لازم ذلك، وهو المجازاة، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم بالأعمال، وأحاط علمًا بها، فلن يسوي يوم القيامة بين المخلص والمرائي.. لن يسوي بين من أعماله كلها خالصة لله، ومن أعماله ليست لله، فالله علم ما في قلب هذا وما في قلب ذاك، ولن يسوي بينهما يوم القيامة، بل سيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.. ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النجم:٣١].

١- وعن أمير المؤمنين أبي حَفْصٍ عمرَ بنِ الخطابِ بنِ نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزّى بن رياحِ بنِ عبدِ اللهِ بن قُرْطِ بن رَزاحِ بنِ عدِي بنِ كعب بنِ لُؤَيِّ بنِ غالبٍ القُرشِيِّ العَدويِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يقُولُ: «**إنّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِىءٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه**». مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ. رَوَاهُ إِمَامَا الْمُحَدّثِينَ، أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْن إبراهِيمَ بْن المُغيرَةِ بنِ بَرْدِزْبهْ الجُعْفِيُّ البُخَارِيُّ، وَأَبُو الحُسَيْنِ مُسْلمُ بْنُ الحَجَّاجِ بْنِ مُسْلمٍ الْقُشَيريُّ النَّيْسَابُورِيُّ ب فِي صحيحيهما اللَّذَيْنِ هما أَصَحُّ الكُتبِ المصنفةِ.

هذا الحديث.. حديث عمر بن الخطاب هو أول حديثٍ أورده النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «رياض الصالحين»، وكذلك هو أول حديثٍ أورده رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في كتابه «الأربعين النووية»، وكذلك في كتابه «المجموع شرح المهذَّب» عقد في أوله فصلًا في الإخلاص، وإحضار النية، وبدأ بهذا الحديث.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجموع: «وانما بدأت بهذا الحديث تأسيا بأئمتنا ومتقدمي أسلافنا من العلماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وقد ابتدأ به إمام أهل الحديث بلا مدافعة أبو عبد الله البخاري صحيحه ونقل جماعة ان السلف كانوا يستحبون افتتاح الكتب بهذا الحديث تنبيها للطالب على

تصحيح النية وإرادته وجه الله تعالى بجميع أعماله البارزة والخفية: وروينا عن الامام أبى سعيد عبد الرحمن بن مهدى رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال لو صنفت كتابا بدأت في اول كل باب منه بهذا الحديث وروينا عنه أيضا قال من أراد أن يصنف كتابا فليبدأ بهذا الحديث».

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه أعلام الحديث: كان المتقدمون من شيوخنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يستحبون تقديمه أمام كل شيء يُنشأ ويبتدأ من أمور الدين، لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها ودخوله في كل باب من أبوابها».

وهذا الصنيع بالبدء بهذا الحديث له نظائر عند أئمة أهل العلم، كالبغوي افتتح كتابيه «مصابيح السنة» و«شرح السنة» بهذا الحديث، وكذلك عبد الغني المقدسي افتتح كتابه «عمدة الأحكام» بهذا الحديث، وكذلك السيوطي بدأ كتابه «الجامع الصغير» بهذا الحديث، وغيرهم من أهل العلم.

قال عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو صنفت الأبواب، لجعلت حديث عمر في الأعمال بالنية في كل باب، وعنه أنه قال: من أراد أن يصنف كتابا، فليبدأ بحديث: «**الأعمال بالنيات**».

والبدء بهذا الحديث فيه التنبيه لأهمية إحضار النية، وأن النية أساسٌ تقام عليه الأعمال، وأصلٌ يبنى عليه الدين.

ولهذا فإن شأن هذا الحديث عظيم، ومكانتَه علية، وهو يدخل في جميع أبواب الفقه.. كل بابٍ من أبواب الفقه يدخل فيه هذا الحديث، ولهذا نقل عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه قال: «يدخل هذا الحديث في سبعين بابًا من الفقه»، فالنية يحتاج إليها في الصلاة.. ويحتاج إليها في الصيام.. ويحتاج إليها في الحج.. ويحتاج إليها في جميع الطاعات والعبادات، بل إن الأمور المباحات بالنية الصالحة تتحول إلى عملٍ صالحٍ يثاب عليه العبد.

وهذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور عليها الدين، فروي عن الشافعي أنه قال: هذا الحديث ثلث العلم.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث:**

حديث عمر: «**إنما الأعمال بالنيات**».

وحديث عائشة: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**».

وحديث النعمان بن بشير: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما أمورٌ مشتبهات**».

وإنما كانت أصول الإسلام تدور على هذه الأحاديث الثلاثة؛ لأن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات، وترك المحظورات، والتوقف عن الشبهات، وهذا تضمنه حديث النعمان.

ثم ذلك لا يتم إلا بأمرين:

أحدهما: أن يكون العمل في ظاهره موافقًا للسنة، وهذا تضمنه حديث عائشة: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ**».

والثاني: أن يكون العمل في باطنه يقصد به وجه الله، وهذا تضمنه حديث عمر بن الخطاب: «**إنما الأعمال بالنيات**».

فالحاصل: أن هذا الحديث حديثٌ عظيم.. جليل القدر.. كبير الأهمية، ينبغي أن يعنى به كل مسلمٍ حفظًا وفهمًا، وتحقيقًا لما تضمنه من إصلاح النية، وإطابة المقصد.

قوله ﷺ في هذا الحديث: (**«إنّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيّاتِ»**)، أي: الأعمال معتبرة بنياتها، فإذا كانت النية صالحة صحيحة، فإن العمل يتقبل من العامل ويثاب عليه، وإذا كانت النية فاسدة؛ رُدَّ عليه عمله، فالأعمال معتبرة بنياتها.

والأعمال يتناول القرب التي هي العبادات، ويتناول أيضًا عموم الأعمال، كنوم الإنسان وشربه وأكله، فإذا نوى بأكله وشربه ونومه التقوي على طاعة الله، وعلى عبادة الله، فهذا معتبر بهذه النية الصالحة التي قامت في قلب هذا العامل، فيثاب على ذلك، فالأعمال المباحة تتحول بالنية إلى عملٍ صالحٍ لان الأعمال معتبرة بنياتها.

وهذا ممَّا يبين لنا مكانة النية الصالحة، وعظم أثرها، بحيث أن صاحب النية الصالحة حياته كلها تتحول إلى عمل للّه عَزَّوَجَلَّ بما في ذلك نومه.

ثم إن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ضرب مثلًا لتوضيح مكانة النية، وعظيم أثرها، ألا وهو الهجرة، وهي: الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**«فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه»**)، فأخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن هذه الهجرة تختلف باختلاف النية، فمن هاجر من دار الكفر إلى دار الإسلام حبًّا للّه عَزَّوَجَلَّ، وحبًّا لرسوله، وطمعًا في صلاح حاله في ديار الإسلام، وليتعلم دينه ويتفقه، فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله حقًّا، وهو الفائز بثواب الله، قال: (**«فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله»**).

(**«فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله»**)، أي: نيةً وقصدًا، (**«فهجرته إلى الله ورسوله»**)، أي: ثوابًا وأجرًا.

بينما من هاجر من ديار الكفر إلى ديار الإسلام لطلب الدنيا، (**«لِدُنْيَا يُصيبُهَا»**)، أو من أجل امرأة ينكحها في دار الإسلام، (**«فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه»**)، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: (**«إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه»**)، تحقيرًا لما طلبه من أمر الدنيا واستهانةً به، حيث لم يذكره بلفظه.

فالشاهد: أن الهجرة طاعة من الطاعات، وبين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن مدار الأمر فيها، وكذلك في غيرها من الطاعات على النية، والنية محلها القلب، وهي بين العامل وبين ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا نص أهل العلم أنه لا يجوز التلفظ بالنية، في أي قربةٍ من القرب، بل النية بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجتهد المسلم في كل أعماله وفي جميع طاعاته على الإخلاص وصلاح القلب، وقصد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده بالأعمال، وكل ذلك بين العبد وبين ربه جَلَّ وَعَلَا.

نفعنا الله أجمعين بما علمنا وزادنا علما وتوفيقا، إنه سميع قريب مجيب. وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.